

الانسان والعجاوات

بقلم حضرة سليمان افندي ابى عز الدين

قد ادى البحث الحديث إلى تقرير مقام الانسان بين المخلوقات وهي الفصالة التي نشدها العلماء طويلاً. ولما كان البحث عن ماهيته براجعة جميع السلسلة الحيوانية من الادنى إلى الاعلى متذراً رأينا ان نكتفي بذكر علاقته مع باقي الحيوانات من باب التليح والاماع . فانه وان لم يميز بعد بان من مقتضيات الطبيعة وجود سلسلة متدرجة تباين الحيوانات شكلاً واختلاف مفاصلها واعضاءها وافضلية الواحد منها على الآخر مما يحمل على التفريق بين افرادها وتخصيص كل نوع منها بمنزلة . ويقال بنوع عام ان تركيب الحيوان فيه دلالة على طباعته فالمواد اللطيفة اذا لم تعدها عضواً عظم داخلية او اصداً خارجية لا يتكون منها سوى بعض الحيرانات المائية او الحيوانات البرية التي لا تستطيع المعيشة الا في احوال متائلة . وهذه الحيوانات قليلة الحركة والنشاط . ومن المقرر ان الحيوانات البرية الخالية من الهيكل العظمي تكون صغيرة الحجم والجمرية الخالية منه قد تكون كبيرة الحجم ذات اطراف طويلة تديرها حسب تشاء وتركيبها هذا يعينها على الحركة . اما ذوات الاصداف فيشبه اجسامها ثابتة لا تغير والاصداً نقيها من العوارض والصددمات التي تطرأ عليها من الخارج الا انه اذا زاد حجمها عن حد الاعتدال يكون مانعاً لها من الخفة والنشاط وداعياً الى الخمول . وقد تقع هذه العوائق في ذوات الفقرات كما في التماسح عند خروجها من المياه غير ان السلسلة الفقرية داخل الجسم العمي اكبر فائدة من الاصداف الخارجية لانها تحمل الاجزاء اللطيفة ويبقى جسم الحيوان معها على شكل واحد لا يتغير ومع هذا فهي بالنسبة الى اجسام الحيوانات صغيرة الحجم وبينها مادة لدنة تخفف من قوة الصددمات عند الوثوب والانحدار وبها تسهل حركة الاضغناء فيتمكن الحيوان من سرعة الحركة بلا تكلف

هذه هي المزية الاولى التي يمتاز بها ذوات الفقرات ومنها الانسان فضلاً عن ان اجسامها قد تبلغ حجماً كبيراً وكبر الحجم تبعه في الغالب شدة القوة وطول العمر ولا يخفى ان تثقيف الانسان وتأهيله للاعمال لا يتيسر ما لم يكن بالغا حداً معلوماً في بنيتة وقوته الجسدية ولو كانت قوى الانسان منخطة عمماً هي عليه لما اقتضت النتيجة على تحمله وهبوط مقامه . واذا قابلنا قوته الجسدية بقوى سائر الحيوانات وجدنا الحشرات وحيوانات اخرى غيرها تتوقه قوة بالنسبة الى حجمها لكن حذقه واقداره على استعمال الآلات يعينانه في اعماله اكثر من

قوته الجسدية فالتلمذ مثلاً وان تكن قادرة على العمل لا تستطيع الحراثة وحفر المعادن وغيرها ولا صنع الآلات والعمل بها . ومن المعلوم ان الصنائع والاعمال التي عليها مدار العمران تطلب القوة الجسدية فالاقزام ولو توفرت فيهم الخفة لا يبلغون مبالغ غيرهم من بني الانسان في التمدن الذي اسمه تسهيل رفع الاثقال ونقلها . بالقوة تيسرت المواصلة بين الاقطار المترامية الثقة واستولى الانسان على كل صعب فاذله وبالقوة توصل إلى كل ما فيه خيرٌ وصلاح شانه ولو كان عزيز المطلب عسر المثل

ولذوات الفقرات مزية اخرى تمتاز بها على غيرها من الحيوانات وهي طول العمر فالحيوانات الخالية من سلسلة فقرية او هيكل عظمي كالحشرات مثلاً تكون قصيرة العمر وفي خلال عمرها القصير يطراً عليها المسخ فيتغير شكل جسمها وتقر على ثلاثة ادوار تكون في الدور الاول دوداً وفي الثاني زيباً وفي الثالث فراشاً قصير العمر . والمسوخ من ملازمات هذه المغلوقات الصغيرة الحجم وقد تستطيع دفع الفواعل الخارجية وما يعتور داخلها من التغيير وقد لا تقوى على مقاومة الاخلال الطبيعي في حال راحتها بل توقفه الى حين بما يصيبها من التغير المتواصل ويتعذر ارتفاعها العقلي لسرعة انصرام اجلها كما ان سرعة نشوئها ونموها وهرمها تمنع ارتفاعها المدركة ايضاً وهذه القوى تقوى في ذوات الفقرات بانفساح اجلها ونموها نمواً قانونياً بطيئاً

وقد يظهر لاول وهلة ان الانسان لا يفوق كل الحيوانات في اعتبار من الاعيانات الالفة الذكر لان كثيراً من الحيوانات الداجنة اكبر منه حجماً والوحوش وبعض افراد الطيقة الدنيا من الحيوان تعمر اكثر منه والقرود بفرقة خفة ونشاطاً . لكن اذا انعمنا النظر لم يخف علينا امتياز ينبتو على بنية غيره من الحيوان فانه يشترط في ضخامة الجسم ان لا تتجاوز حداً معيناً والآن انقلب النفع ضرراً وخرجت عن الشروط المقتضاة لنمو ذوات الفقرات وتحسين معيشتها وارتفاعها . فالحيوانات الضخمة تكون شديدة القوة غير انها لا تستفيع بقوتها ليطة حركتها او تحركها في جهة واحدة فقط حتى لا يبق في امكانها استعمال قوتها دفاعاً عن نفسها في اية جهة هوجت منها . فانيل وفرس البحر ضخما الجثة شديدا القوة غير ان قوتيهما سبب للضرر لا للنفع اما ما يعمله النيل من الاعمال فانما يباشره بخرطوميه المتحرك ويؤه عن من احذق الحيوانات لا يجتنب الهائلة وهامه الكبير

فبالجملة يكن ان يقال ان القوة والبطء من خواص الحيوانات الكبيرة الحجم والضعف وسرعة الحركة من خواص الحيوانات الصغيرة اما الانسان ففي درجة وسطى وهو ايضاً بين

بين من جهة التعمير اذ ان من الحيوانات ما تمدُّ ايامه على الاصابع ومنها ما يعمر اطول من الانسان . فالفترة الاولى لا يترتب لها الاخبار ومشاهدة الحوادث الطبيعية الشوازة والثانية ينيف عمرها على ما يقتضيه اخبار الاحوال والتأدب بها . ومتى تجاوز الحيوان سنّاً معلوماً قد لا يقع له بعده حادثة غريبة او امر جديد بل كلما حال حول كرت معه نفس الحوادث التي جرت في سابقه فلا تأتيه الحياة بلذة ولا يجني منها فائدة . والانسان من هذا القبيل اسعد المخلوقات لانه معتدل العمر مستوف فيه جميع اللذات وان اسف احياناً لتقصير حياته بالنسبة إلى بعض العجاوات مع طول آماله فقد يجد لذة بالتعلل بتلك الآمال ولو انها ليست الا كطيف خيال . وحياة الانسان وان طالت اكثر من الامد المعلوم لا تزيد في لذاته بل تنقصها وهو ملاقي في حياته هذه المسرات والارتقاء عقلياً وادبياً أكثر مما تلاقيه باقي الحيوانات ولو كانت اطول منه عمراً

اما اسباب طول الحياة فغير مجزوم بمعرفتها تمام المعرفة لكن قد يعرف شيء من حياة الحيوان من احواله الظاهرة فمن المعلوم ان الحركة الكثيرة المستمرة تضي المواد الآلية وتعجل انصرام الاجل . فالحيوانات العداءة كالكلب والارنب والغزال اقصر عمراً من الانسان ومن اكثر السباع ايضاً وهذه السباع وان جدت في الاجتراح لا تكثر الحركة كذلك ولا يعاني النسر العزوم مع سرعة طيرانه ما تعانيه العصافير الصغيرة الكثيرة الحركة وحياته اطول من حياتها اما الحيوانات البرية البحرية فالسبوتة منها خصوصاً تعمر طويلاً لبطئها وبرد دم بعضها فما تقدم اعبارته يكون الانسان ارفع مقاماً من جميع الحيوانات لانه اصحها بنيةً مجتمع القوة والحركة والنشاط باعندال وتناسب عييين وكلها راضحة صاغرة لسلطة العقل الذي يتولى قيادها بدرابته

وما كانت الاحوال الخارجية لتجور عليه فتصنعه باغلاماً نظير سائر الحيوانات التي ترسف في قيودها فهو يعيش حيث شاء مغالباً شمارة القيط وصبارة القر يطوي اليد ويتسلق الجبال ويخترق البحار مختاراً لنفسه ما يحلوه من البقاع بلا ممانع بصرفه عنه ولا حاجز يعيقه عن الوصول اليه . لاجار من الحيوان يتازعه في سكناه ولا الطبيعة تضرب له حداً لا يتعداه خلاقاً لغيره . من الحيوانات التي منها ما يعيش في جسم غيره لا يتجاوز الى سواه ومنها ما يكن بقعة من الارض لا يفارقها مضطراً بحكم الاحوال الخارجية كالحر والبرد وسهولة البلاد ووعورتها إلى غير ذلك . فالحيوانات في القطبين تختلف عن التي في المناطق الحارة والمعتدلة . والقاطنة الجبال والاماكن الوعرة تغاير الشوطة الاودية والسهول ويحول دونها

احوال أخرى تحبسها في أماكنها بحث لا تستطيع منها براحاً . اما الانسان نخلي البال بهزاً
بهذه الصعوبات ويعد نفسه ويمرّدها على جميع الحالات

ثم ان ذوات الفترات تنقسم الى طائفتين كبيرتين احدهما اكلة اللحوم والاخرى اكلة
الاعشاب وسكل منها استان وجهاز هضمي تناسب الطعام الذي يتتات به . اما الانسان
فياكل كل اللحوم والنبات او كليهما اذا شاء واستانه وجهازه العصبي مساعدة على مضغ النوعين
وهضمها على السواء . والاطعمة التي يتغذي بها تنفق في توليد حرارة الجسد والتعويض
عما استهلكه العمل واما الفضلة فتكون تارة وقرراً على الاجيزة الغذائية وتسبب الامراض
الكثيرة وطوراً تكون سبباً لزيادة قوة الجسد

والطعام اللازم لتوليد الحرارة في الجسد وتعويض المستهلك منه محدود الكمية اذا زاد
عاد بالضررة على الجسد على ان هذه الضررة يمكن ان تندفع فتقلب نوعاً بمزاولة الرياضة التي
تقوي الامتصاص وتصرف زيادة الغذاء الى تشوية الجسد . والاصح لاعندال الحرارة في
الجسم الاغذاه بالاطعمة النباتية في الاقاليم الحارة والحيوانية الدهنية في الاقاليم الباردة .
ومن ظن بعضهم ان الاطعمة الحيوانية افضل من الاطعمة النباتية وان القوى العقلية تقوى
وتضعف بحسب ما يكون من اخيار احدها . وقد لا يخلو ظنهم من الصحة لكن ليس الى
الحلد الذي توهموه فالتور يتغذي بالعشب والكلاب وفيه من القوة والجرأة والشراسة ما في
السباع ومثله الفيل والذب مع ان معظم قوتها من المواد النباتية . والضعف وان كانت من
سباع الوحش لا تتنازعها شدة وجرأة . ورب قائل يستشهد بالاسد فيرد ان شدة فتكه
وبطشه لا تنشأ عن الاطعمة اللحمية اذ شوحد ان قوته وشراسته تبلغ اشدها في حالة
الجوع والسغب ولو كانت اللحوم الفاعلة لوجب ان يكون وقت الشبع اشد واجراً منه وقت
الجوع . وليست النباهة والنشاط في الحيوان من نتائج الاطعمة اذ يوجد بين اكلة اللحوم
واكلة الاعشاب حيوانات نبيهة وخاملة سريعة الحركة وبطيئتها فلو كان للغذاء تأثير خاص
لما اختلف النوعان في كثير من الخواص بل كان كل منهما تفرّد بخواص تميزه عن الآخر
ولما اجتمع النقيضان في واحد منهما . على انه ليس بعسير على قدرة الخالق التقدير ان يرزق
كل فرقة جميع درجات القوى العقلية سواء كانت سامية او منخطة . وعليه ان الفرق بين
الحيوانات لا يتوقف على نوع ما تكلمها بل على ما اخضعت به كل طائفة خلقاً على ما مرّ في
الامثلة السالف ذكرها

واذا قيل انه مسلم بان جودة الطعام لا ترقى القوى العاقلة ولكنها تولد البأس والنشاط

فقولهم هَذَا يندفع بالالتفات إِلَى الشعوب المختلفة وتفقد اشدها بَأْسًا واصعبها مرأسًا حيث يرى السبق في هَذَا المضمار لأولي النكد والتعب الذين اعتادوا ملاقاتة الصعاب ومعاناة الاتعاب لا الذين انغمسوا في الشهوات وانهمكوا في الملذات . لان الجرأة صِيْغَةٌ طَبِيعِيَّةٌ تجيدها الحنكة مع الايام ولا يد للطعام في توليدها فهي تقوى بملاقاته الاحوال وتضعف بمجاورة الاندال . نعم ان للاطعمة تأثيراً لا ينكر وقد اثبت بعض العلماء « ان الاغذية النباتية كالخنطة والارز والعدس والحصى والفاكهة اليابسة كالكتين والزبيب والتمر وغيرها انسب للصحة من الاطعمة الحيوانية كاللحم وغيره وان الانراط في اكل اللحم مضر بالصحة وان انسب الاغذية الحليب واللبن والجبن والسمك وان بقية اللحوم قد تؤدي الى اسقام كثيرة اكثرها معدية . » وقد عُرِفَ بالاخبار ان الاكثار من الطعام واللحم خصوصاً بلا رياضة تقابلها ثقل الجسد وتورث الخمول فتدعو الى اضطرابات داخلية دائمة اما اذا اجتمعت الرياضة الكافية والاطعمة اللطيفة نيتولد عنها اعظم قوة يمكن الحصول عليها وهذه الرياضة مع الاقتصاد في المآكل بشرط كفايتها لاعالة الجسم تربي اجساماً عضلية قوية عن احتمال المضاعب والمشقات . ويرجحون انها تمدد نسجة الحياة ايضاً اما الرياضة بلاغذاء كافٍ لتجديد ما تهدم من الجسد فتأتي بالهرم السريع قبل اوانه لكن لم يعلم ان احدًا ضعفت قوَاهُ بالاغذاء المواد النباتية كما ان القول بتوقف الارتقاء العقلي على جودة الغذاء لا تؤيده خبرة ولا يشته برهان . غير ان الاختبار قد اثبت ان بعض الناس الذين عاشوا اعواماً في الكهوف المظلمة يقتاتون بالخبز الكير فقط كانوا اسمى عقلاً واشد اقتداراً من اعظم رجال هَذَا العصر الزائعين في ارض عيش يتقلبون على مهاد النعم والرفاه . فاباحة جميع الاغذية للانسان وعدم اقتصاره على نوع خاص منها لما يسهل عليه السكنى في اي اقليم كان وقد تبانت الآراء في تقرير ما يمتاز به الانسان عن الحيوان الاعجم فذهب قوم الى انه يمتاز بانتصاب قائمته بحيث يعاين نجوم السماء واقارها وقال غيرهم ان انتصابه على قائمتين فقط دليل اوضح على امتيازهم وكلا الفريقين لم يصب الغرض لان ذوات الاربع تشارك الانسان في التمتع بتلك المشاهد والظهور تضارعه في الوقوف على القائمتين لكن الفارق بينه وبينها ان يدي الانسان مطلقتا الحركة ووظائفها متعددة خلافاً للحيوانات الثديية التي لا يتيسر لها ذلك ما لم تكن منتصبه القائمة

ويزعم بعضهم انهم يستدلون من ظواهر هيئة الانسان على اخلاقه . على انهم اذا اصابوا مرة اخطأوا مراراً لان الاختيار لم يثبت علاقة الشكل بالعقل ودلالة الظاهر على الباطن

فكم من متقاربين شكلاً يشبايان خلقاً وفعلاً . ولا شك في ان البارئ جل وعلا خلق الانسان في احسن تقويم وفضلته بجمال الصورة على جميع المبروات غير انه لم يجعل الجمال قصداً غائياً اذ لو اقتصر عليه لفخره في ذلك البلور والازهار المختلفة الالوان التي كساها الرحمن جمالاً بارعاً يفوق جمال الانسان فما الانسان بلا قس الا بمجموع مرتفعات ومنخفضات لا يظهر جماله وجلاله حتى تبدو عواطفه الشريفة يزينها العقل بميزان العدل

وقد برأ الخالق اجسام الحيوانات واعضاءها متطبقة على الاحوال التي تعترضها في ادوار الحياة وكساد تنوياً ثقيها من العوارض الخارجية وجعل ما كان من عظامها عرضة للصدمات لدناً وما احتجب عنها سريع انطباع والانكسار . فما سر بيانه بالابحاز في حذر العجالة بدل دلالة صريحة على امتياز الانسان عن العجاوات ويوضح باجلى بيان حكمة المكون الحكيم مبدع المخلوقات

الحمام واقوال العرب فيه

الحمام وما كان من جنسه كالبيام والقمري والاطرغل (الترغل) طائر معروف . وليس الغرض من هذه السطور ان زبده تعريفاً او ان تقيض في وصفه بل ان نلخص ما قاله فيه المتكلمون في طبائع الحيوان من كتاب العرب كالجاحظ والدميري والقزويني وتميذاً لذلك نلخصنا ما قاله فيه المتكلمون في طبائع الحيوان من الاوربيين . قالوا :

الحمام يمتاز على غيره من اجناس الطير بمزايا ظاهرة في خلقته حتى لا يسر تمييزه من اول وهلة . وكلمة معتدل الرأس جميل العنق مندبج الجسم على منقاره عند منبته جند لين فيه منقراه . يمشي الماء عباً كالذباب ولا يحسوه حسواً كاللدجاجة والعصفور فلا يرفع منقاره من الماء حتى يروي . وعلى رجليه فلولس مسدسة وقد يكون عليهما ريش كثيف وقد تكونان عاريتين . وفي كل قدم اربع اصابع على استواء واحد تتصلح رجلاه للشي وللجثوم . واكثر الحمام قوي الجناح سريع الطيران الا الدودو الا في ذكره فانه قصير الجناحين لا يطير وكذا الحمام الفرد (سوليترا) . وللحمام حوصلة كبيرة تصير غذية القوام زمن التفريخ ويفرز منها سائل لبني يسميه العرب اللبأ يربط به الطعام الذي يزق فرخه به . وهو اكل فقد تأكل الحمامة في يومها ما يزيد على جسمها ثقلاً . وبقى الذكر مع الاثني مدى الحياة لا ينفصلان (وذلك في الوحشي لا في الاهلي) ويشترك كلاهما في بناء العش وحضن البيض وزق الفراخ . وتخرج الفراخ من البيض عارية تحتاج الى عناية والديه . ومنقار الفرخ كبير خمي تدخل